دراسات ثقافية

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

جدلية الاستشراق والذهن الاستعماري بين بيرك وكامو

مقاربة بحثية واستقصاء ميداني

مختبر الحوار الخليجي
Gulf Dialogue Lab

عامر صلاح طهبوب

سيبتمبر 2024

(1)

توطئة:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على شخصيتين أدبيتين بارزتين ارتبط اسمهما بالجزائر في زمن الاستعمار، ولدا على أرض الجزائر، وعاشا فيها زمناً، تتلمذا على مقاعد الدراسة في رياضها ومدارسها وجامعاتها، بل إن أحدهما درس لدى الكتاتيب قبل أن يدخل إلى المرحلة الابتدائية، وأصدرا كل نتاجهما الأدبي والبحثي والفلسفي على أرض الجزائر

الأول/ هو المستشرق والباحث وعالم الاجتماع «جاك أوغستين بيرك» الذي ولد في بلدة «فْرِندَة» بولاية تيارت في الرابع من يونيو 1910، ودرس في جامعتي الجزائر والسوربون، وتوفي في فرنسا عام 1995 عن عمر يناهز الخامسة والثمانين

والثاني/ هو الروائي والفيلسوف الفرنسي «ألبير لوسيان كامو»، الحائز على جائزة نوبل في الآداب عام 1957، والمولود في السابع من نوفمبر 1913 في بلدة الذرعان (كانت تدعى «مندوفي» زمن الاستعمار الفرنسي) بولاية الطارف في الشرق الجزائري، وتوفي في حادث سير عبثي في الرابع من يناير 1960 وهو بصحبة ناشر كتبه «غاستون غاليمار» عن عمر يناهز السادسة والأربعين

Photo Source: na3em.cc (2023)

(2)

إذًا تهدف الدراسة إلى عقد مقارنة ومقاربة بين تجربة «ألبير كامو»، وتجربة «جاك بيرك» في الكتابة كمستشرقين من أصول فرنسية ولدا على أرض الجزائر في زمن الاستعمار الفرنسي الذي جثم على صدر الجزائر منذ عام 1830 للميلاد وحتى التحرير عام 1962م، وبهذا فإن ولادة «بيرك» في «فْرِندّة» تكون بعد 78 عاماً على الاحتلال، فيما ولد «كامو» في الذرعان بعد 91 عاماً على احتلال الجزائر؛ كما ولد الأول لأب فقير حتى العدم وقتل في الحرب العالمية الأولى و»كامو» في عامه الأول، فعاش الطفل مع أمه في تلك الشقة الفقيرة في الطابق الأول من بناية صغيرة، والتحق بمدرسة ابتدائية تقابل بيته ولا تبعد عنه أكثر من خمسين متراً قبل أن يكمل دراسته الإعدادية والثانوية، وفاز بمنحة تفوق التحق بموجبها للدراسة في جامعة الجزائر، وأقام ووالدته في حي «بلكور» قبل أن ينقل أمه إلى دار العجزة في حجّوط من ضواحي تيبازة، ويبقى وحيداً في الجزائر، ثم انتقل بعدها للعيش في تلك «العِليّة» في مدينة تيبازة

وأما «بيرك»، فقد ولد لأب ميسور الحال، مثقف، ويعمل في منصب حاكم إداري في «الجزائر الفرنسية»، درس في الكتاتيب، وتعلم قراءة القرآن الكريم، وحفظ أجزاء من كتاب الله، وكان ذلك على يد معلميه الشيخ حبيب الصغير الجبلي، ومحمد صويلح. كما أدى الخدمة العسكرية في مراكش بالمغرب، واستخدم للعمل في عدة مناصب في المغرب، وبشكل خاص في جبال أطلس الكبير، وقد زار مصر وتعرف على طه حسين، وألف كتاباً بعنوان: «مصر الإمبريالية والثورة»، وحمل لاحقاً درجة الدكتوراة في «البنيات السوسيولوجية للأطلس الكبير: سكساوة» عام 1955، وهي الرسالة التي مهدت لحصوله في العام التالي على درجة الأستاذية في «كوليج دي فرانس»

(3)

تجربة «بيرك» الإبداعية

بين موضعه كمستشرق وموقفه من الاستعمار

دفعت نشأة «جاك بيرك» وتأثيرات والده الذي كان مهتماً بدراسة الدين الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية، وحتى دراسة التجمعات القبلية الأمازيغية في الجزائر والمغرب، دفعته إلى الاهتمام بالمغرب العربي مجتمعاً وسكاناً، ودراسة اللغة العربية وإجادتها قراءة وكتابة وفهماً، ودراسة الدين الإسلامي وتدبر آياته، وتفحص معانيه، والاهتمام بالأدب العربي، وارتباطه بعلاقات مع عديد من المثقفين والكتاب العرب في غير بلد عربي، وترجمة أعمال وأشعار من بينها قصائد أدونيس إلى الفرنسية، ودراسة حاضر الإسلام، ومحاولته التي ترجم فيها القرآن الكريم

وللحق فإن «بيرك» يعد شخصية جدلية وإشكالية بحكم ما يبدو للإنسان العادي متناقضاً أو غير مفهوم، فالرجل نفي من قبل السلطة الاستعمارية الفرنسية إلى الأطلس الكبير، وما كان عمله كمراقب إداري في جبال الأطلس إلا نوعاً من العقاب له على رفضه إجراءات فوقية قامت بها سلطة الاستعمار الفرنسية، ولكنه في نفس الوقت قضى وقته في جمع الروايات الشفوية لكبار السن في الأطلس، واقترب من السكان المحليين، وشرب معهم الشاي، وتناول الحلوى، وتبادل الضحكات، وعلى الرغم من عمله حاكماً استعمارياً في «إمنتانوت» في جبال الأطلس بين عامي 1947 وحتى 1954، إلا أنه كان مهتماً بالعمل كباحث ويطلع على المخطوطات في الزوايا الصوفية والمدارس القديمة، وهي الفترة التي أتاحت له إعداد درجة الدكتوراة

واستند الباحث عدنان بن صالح في مقالة في موقع «معلمة» بعنوان: «جاك بيرك من عباءة الاستعمار إلى رحابة الاختيار» إلى ما جاء به عبد الرحيم عدناوي من تصنيف، أو تأطير زمني وفكري لأعمال «جاك بيرك»، والتي فصلها على النحو التالي

المرحلة الأولى من عام 1935 وحتى 1946، والتي ذكر أنها لا تتميز في الكتابة عن باقي كتابات السوسيولوجيا الاستعمارية، ذلك أنها عاصرت فترةً زاول فيها «بيرك» مهامه كموظف مخلص لدى سلطة الحماية في المغرب

المرحلة الثانية من عام 1947 وحتى 1955، وهي مرحلة لم يعد فيها «بيرك» معنياً بأن يقترح أي شيء على السلطة الاستعمارية الفرنسية وهو يعمل لديها مراقباً إدارياً، قدر اهتمامه في دراسة مجتمعات الأطلس الكبير، واكتفى بدور الموثق والمحلل والباحث في مختلف جوانب النظام الاجتماعي، ودراسة أصول التجمعات السكانية التي رأى أنها مرتبطة بشبكة تمتد إلى كل شمال إفريقيا

المرحلة الثالثة من عام 1953 وحتى 1995، وهي التي أعاد خلالها تحرير مؤلفه «البنيات الاجتماعية في الأطلس الكبير»، وهي الدراسة التي توصل فيها بيرك إلى ما يلي:

أولاً: انتماء المجموعة القبلية في الأطلس الكبير لكيان أوسع من الحدود الجهوية والقطرية، ليعم انتماء إفريقيا الشمالية برمتها، ووجد أن هذه التكوينات الاجتماعية تتشكل أساساً من خلايا عائلية أبوية تتشابه ولا تختلف إلا من ناحية التركيب، ويقول «إننا لم نعثر بعد على المبدأ العام الذي تنتظم وفقه هذه التجمعات»، ولاحظ وجود تجانس واستمرارية بين كل المكونات الاجتماعية على مستوى شمال إفريقيا

ثانياً: الخلاصة الثانية تتعلق بالتجذر التاريخي لكل التنظيمات القبلية في إفريقيا الشمالية وانتمائها لمنظومة واحدة بما في ذلك التجمعات النائية المنعزلة عن الاحتكاك الحضاري، والتي تعيش على قمم الجبال أو في مناطق يصعب الولوج إليها، وهي نظرة عكس النظرة الاستعمارية التي كانت ترى في هذه التجمعات بقايا ورواسب لمجتمع جامد يكتفي بإعادة إنتاج أنساقه والتموضع خارج التاريخ

ثالثاً: وجد «بيرك» قدرة لدى هذه التجمعات على استيعاب مضامين ثقافية متعددة المصادر، وإدماجها في النسق العام الذي تتشكل منه الهوية القبلية بحيوية وانفتاح، ويقول: «وكأن هذه التنظيمات تسعى من خلال تعويض داخلي إلى إعادة التوازن، والمحافظة على استقلالها الذاتي»، ويضيف: «إن قبول هذه التنظيمات لما هو جديد، وخضوعها لأشكال العنف والإغراء، لا يتنافى أبداً مع تشبثها بقيمها الأساسية».

واقع الحال فقد كانت هذه الفترة أغنى مرحلة في حياة «جاك بيرك»، حيث درس فيها في الجامعة، وحاضر في مناسبات عديدة، وكتب المقالة، ونضجت في هذه الفترة تجربته في الكتابة في علم الاجتماع، والتاريخ الاجتماعي، والقانون، والتاريخ، والفلسفة.

أعود إلى «فْرِندَة» مرة أخرى، حيث زار كاتب الدراسة مغارات بني سلامة التي اعتكف فيها العلامة العربي المسلم ابن خلدون وكتب فيها مقدمته، وعندما جلس الكاتب في المغارة الرئيسة التي كان يعيش فيها عبد الرحمن ابن خلدون، ارتدى مجازاً عباءته، ووضع على رأسه تقمُّصاً قبعة «بيرك» الفرنسية، ذلك أن «جاك بيرك» جلس في مكانه في تلك المغارة أكثر من مرة وهو يدرس أثر العزلة في الكتابة، والأسباب التي دعت ابن خلدون للجوء إلى تلك المغارات الكئيبة الموحشة، وذلك ما يدلل على أن «بيرك» كان باحثاً جاداً في التاريخ الاجتماعي لمنطقة شمال إفريقيا، كما هو الحال مع مصر، وسوريا، وغيرها من الأقطار المشرقية

السؤال الذي يجب طرحه عند الحديث عن «جاك بيرك» هو: هل هو مستشرق، أم مستعرب، أم مستعمر لبس ثوب الفضيلة؟ هل هو فرنسي أم جزائري؟ هل استهواه

Photo Source: Alarabiya (2009)

السؤال الذي يجب طرحه عند الحديث عن «جاك بيرك» هو: هل هو مستشرق، أم مستعرب، أم مستعمر لبس ثوب الفضيلة؟ هل هو فرنسي أم جزائري؟ هل استهواه القرآن الكريم فترجم معانيه، وهل يمكن لمثله أن يكون رسولاً للضفتين معاً؟

القرآن الكريم فترجم معانيه، وهل يمكن لمثله أن يكون رسولاً للضفتين معاً؟ وقد كتب كتابه «مذكرات الضفتين» نسبة إلى ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وهو يعني فرنسا والعالم العربي، وقد قال: «أنا بالأحرى مناضل في سبيل التقريب بين الضفتين، بين فرنسا والعالم العربي، وفي سبيل إفهام قرائي الفرنسيين بخاصة، ما هي حقيقة الإسلام بعيداً عن الكليشيهات والأفكار الجاهزة»

هل أعجب الرجل بخطاب العقل في القرآن الكريم؟ أم أنه لجأ إلى خطاب العقل لإحداث شرخ ما في الإيمان بكتاب الله الكريم، وهو يقول: أنه فوجئ بتكرار الدعوة إلى العقل في القرآن، ويضرب أمثالاً: أفلا يعقلون، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون، وكذلك تكرار «فبأي آلاء ربكما تكذبان». هل وجد «بيرك» في الإسلام رؤية جديدة لحقيقة العالم؟ أم أنه كان متمسكاً بكاثوليكيته ومؤمناً مخلصاً للمسيح كرب مخلّص

أسئلة كثيرة يمكن أن تطرح حول هذه الشخصية الجدلية التي دار حولها الكثير من الكلام، والحقيقة فإن الرجل قد نفى عن نفسه صفة الاستشراق، ونفى عن نفسه صفة المستعرب، ورأى في الإسلام وأهله موطن قوته، وقال: «صحيح أنني كاثوليكي مؤمن، إلا أن قوتي تكمن في أنني أمضيت طيلة حياتي مع المسلمين، وبالنسبة لي ليس الإسلام بغريب عني»، وقال: «يبدو أن نداء قد نأى بها عن شخصي، هكذا يستشعرها المسلمون، والحال أنني قد جعلت مواقفهم مواقفي عندما درست كتابهم المقدس مع احتفاظي بالمسافة المناسبة لتمييز نفسي ولإبراز هويتي، لقد وضعت نفسي في جلبابهم، أي تقمصتهم كما يقال بالعربية، مع بقائي نفسي، فكيف يمكن ذلك، أهو التعاطف، التقمص العاطفي»

«لا شك أنني أحب اللغة العربية لدرجة أنني أستمتع بنوع خاص من اللذة الحسية والروحية، والدليل على ذلك أنني لم أتعلمها فقط، بل وأعلمها، وكتبت واجتهدت فيها»

كان «جاك بيرك» يعتبر الصحراء العربية أرض التوحيد، وتحدث عن الدين الإسلامي بإنصاف، وهو الحافظ لأجزاء منه رغم بقائه على الكاثوليكية كإيمان شخصي، وقد قال: «الإسلام ليس دين الجهلاء والتعصب والعنف كما يشيعون، وإنما هو أولاً وقبل كل شيء، دين العقل والتبصر والرحمة والتسامح»، ومع ذلك فقد وقف منتقدي «بيرك» له بالمرصاد عندما يكمل القول: «ويمكن للمسلمين عن طريق هذه العقلانية الموجودة في القرآن الكريم أن يدخلوا العصر ويقبلوا بالعلم، ويتصالحوا مع العلمانية والحداثة»

يذكر أن ترجمة «بيرك» للقرآن الكريم تعرضت إلى انتقادات لاذعة وقدح، كما لاقت من آخرين مدحاً، وقد أحب الرجل اللغة العربية وكتبها بخط جميل يفوق جمال خط الكثير من أبنائها، وذكر في أحد رسائله المكتوبة بخط يده إلى أحد أصدقائه من العلماء العرب، وهو يقول في اللغة العربية: «لا شك أنني أحب اللغة العربية لدرجة أنني أستمتع بنوع خاص من اللذة الحسية والروحية، والدليل على ذلك أنني لم أتعلمها فقط، بل وأعلمها، وكتبت واجتهدت فيها، وأقصد بالتعليم هنا المتخصص الجامعي الأكاديمي»

وجد كتاب «جاك بيرك»: «إعادة قراءة القرآن»، استحساناً من جهات إسلامية عديدة من بينها الأزهر الشريف، إلا أنه واجه اتهامات من أطراف أخرى من بينهم ما كتبه الدكتور شعيب راغين «الإحداثيات المبتدعة في قراءة جاك بيرك الاستشراقية للقرآن الكريم» الذي أخذ عليه تقسيم القرآن إلى جمل، والجمل إلى كلمات، تمشياً كما قال مع منطق تحليل الخطاب من مكوناته المباشرة التي ظهرت بوادره على اللسانيات البنيوية، وأن قراءته تقوم على خاصية الانتقاء غير المنضبط، وأنه يبتر جزءً من آية، ويحتفظ بجزء

آخر، وأنها قراءة أبانت عن قصور في إدراك الأسلوب البياني للقرآن الكريم، كما انتقد امتعاض «بيرك» من التكرار الذي يحدث في بعض الآيات، وبعض المقاطع الحكائية، والقصص القرآنية، وأنه لا يميز بين التكرار والتصريف، مؤكداً على أن «الخطأ في الدين أضر من الخطأ في الرياضة والصناعة والفلسفة والكيمياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم»، وأن مثل هؤلاء من البشر «لا يمكنهم الإتيان بجميع مراد الله».

شعر «جاك بيرك» بنوع من أنواع الظلم نتيجة الهجمة التي أعقبت نشره لكتبه، وبشكل خاص «ترجمة معاني القرآن»، و» القرآن محاولة ترجمة»، و»إعادة قراءة القرآن»، وربما شعر الرجل في مرحلة متقدمة من تجربته في الكتابة أنه قد أخطأ، ولكنه لم يقل بالضبط في ماذا أخطأ؟ لكن شيئاً ما دعاه إلى القول: «من الجائز أنني أخطأت الطريق أساساً، حين مزجت بين الإيديولوجيا، ربما كان يلزم أن يبقى بحثاً موسوعياً. لقد كنت أزعج المتخصصين في الشرق من غير أن أفرض نفسي على المنظّرين»

ولا بد لي أن أذكر أن «جاك بيرك» عندما كتب مقدمة ترجمته للقرآن الكريم، نشر المقدمة في آخر الكتاب، وعندما طلب إليه أن يعلل ذلك قال: «لأن كلام الله لا يجب أن يكون مسبوقاً بكلام البشر»، ولعل هذا الرجل الذي تولى كرسي التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر في «كوليج دي فرانس» لسنوات طويلة، وحفظ أجزاء من القرآن، وأشاد بالدين الإسلامي كدين حنيف في كل محفل، وعشق اللغة العربية، والمنطقة العربية،

Photo Source: independentarabia (2021)

لم يكن مستحقا هذه الهجمة وسيل الانتقادات، فهو ليس مسلماً، إنه كاثوليكي مؤمن بالمسيحية، ولذلك فلعله أنصف الإسلام واللغة والعرب، حتى وإن كان قد وقع في أخطاء، أو أنه قدم تساؤلات تمسّ «تابوهات محرمة» من وجهة نظر المسلمين

وبخصوص موقفه من الاحتلال الفرنسي، فقد بدأ حياته في توجيه انتقادات لها تتعلق بالفوقية وحقوق الإنسان كما فعل والده رغم عمله بمنصب كبير، ورغم وجود أجداده في الجزائر قبل ولادته بمائة عام، إلا أنه تحول فيما بعد إلى حارس للضفتين ليقف في المنتصف بين فرنسا والجزائر، فلم يكن يود أن يكون في صف فرنسا الاستعمارية، وربما لم يكن قادراً أن يكون إلى جانب القضية الجزائرية، لكن موقفه وقناعاته تغيرت في فترة لاحقة ناهض فيها الاستعمار بكل أشكاله، وناهض الاحتلال الإسرائيلي عام 1967، كما ناهض معاهدة «ماستريخت» التي مهدت لقيام الاتحاد الأوروبي خشية من أن يتحول هذا الكيان إلى كفة راجحة لمصالح شمال أوروبي قد يدير ظهره لبلدان البحر الأبيض المتوسط

Photo Source: Alhurra (2023)

(4)

تجربة «ألبير كامو»:

من التمرد إلى العبثية، ومن العقوق إلى إنكار الحقوق

إذا كان «جاك بيرك» رجلاً إشكالياً كمستشرق أو عالم اجتماع أو باحث فضل أن يقف في حياته بين الضفتين، فإن «ألبير كامو» يعد أكثر إشكالية وتعقيداً وحِدّة، بل أكثر نزقاً وتقلباً من «بيرك» وغيره من مستشرقين فرنسيين ولدوا أو عاشوا على أرض الجزائر.

كثير هم الذين دافعوا عن «كامو»، وكثير هم الذين هاجموه، البعض رأى أن يُحكَم على الرجل من خلال أعماله الأدبية، والبعض الآخر حاسبه على الأقوال، والمواقف الأخلاقية والإنسانية، وبخاصة من الثورة الجزائرية، وقبل ذلك من الإنسان الجزائري الذي وُجد في أعماله الأدبية، لكنه كان بلا اسم ولا هوية، وسيحاول كاتب هذه الدراسة أن يسلط الضوء على حياة «ألبير كامو»، وأعماله الأدبية أو بخاصة روايته «الغريب» التي أوصلته إلى نيل جائزة نوبل للآداب عام 1957، والتعرف على «الفيلسوف كامو»، وليس فقط الروائي، قبل أن نصل إلى الخاتمة، لعقد مقاربة بين «بيرك - كامو» كمبدعين ولدا على أرض الجزائر في زمن الاستعمار، ليس مقاربة في الأعمال فقط، ولكن كما قلت في المواقف الإنسانية، وفي معاني الإنصاف للآخر كمثقف، أو قائد رأي يفترض أن يسعى إلى حرية الإنسان وكرامته وحفظ حقوقه دون شعور بفوقية، أو دون النظر إلى الآخر بدونية

Photo Source: aawsat (2023)

ولد «ألبير كامو» كما ذكرت آنفاً في شقة صغيرة لعائلة فقيرة شبه معدمة في بلدة الذرعان من أعمال ولاية الطارف في الشرق الجزائري، والده قتل وهو يحارب في صف الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى، و«كامو» لم يبلغ من العمر سوى عام واحد، وأما أمه فكانت امرأة أمية إسبانية صماء، ودرس الصبي في مدرسة فرنسية حكومية تقع تماماً قبالة بيته، وربما كان لهذه النشأة تأثيراً في نفسه حتى عندما كبر، جعلته يميل إلى التشاؤم وعدم التصالح مع حياة رأى أنها بلا معنى، وأنه يتوجب علينا القضاء عليها بالموت الإرادي، وربما لهذه الأسباب ولغيرها أيضاً، اتخذ طريق العبثية والتمرد، واللجوء إلى أسطورة الفتى الإغريقي «سيزيف» الذي كُتِب عليه أن يُصعِّد صخرة إلى قمة جبل، سرعان ما تتدحرج وتعود إلى مكانها، فيعود «سيزيف» ليُصَعِّد الصخرة إلى قمة الجبل مرة أخرى، وتعاود السقوط، وهكذا يعيش الفتى عمره بلا معنى، وإلى الأبد، إن الحياة كما يراها «كامو»، شقاء بلا جدوى كشقاء «سيزيف»

لهذه الأسباب نرى عناوين أعمال «كامو» الأدبية تحمل عناوين لافتة: المتمرد، الغريب، السقطة، الطاعون، المقصلة، السقوط، الإنسان المتمرد، المنفى والملكوت، أسطورة سيزيف، و«الرجل السعيد» التي تروي قصة حياته في الجزائر، ويبدو أن الرجل أحب الجزائر، ولكنه أحبها لنفسه وليس لأهلها، وأحبها بحدود طالما أنها ستبقى فرنسية، ولا تسعى إلى الانفصال عن ذلك الكيان الكولونيالي، وليس أدل على أن «كامو» قد جسّد بحق الروح الاستعمارية والعنصرية والاستشراقية البغيضة، بما قاله الباحث الفرنسي «أوليفييه جلوج»، الأستاذ في جامعة «أشفيل» في كارولينا الشمالية، الذي ورغم وصفه رواية الغريب بأنها «تحفه»، إلا أن كتابه قد حمل عنواناً صارخاً ينال من «كامو»، فحمل اسم: «نسيان كامو» (صدر عن دار نشر «لافابريك» الفرنسية، 2023)

لهذه الأسباب نرى عناوين أعمال «كامو» الأدبية تحمل عناوين لافتة: المتمرد، الغريب، السقطة، الطاعون، المقصلة، السقوط، الإنسان المتمرد، المنفى والملكوت، أسطورة سيزيف، و«الرجل السعيد» التي تروي قصة حياته في الجزائر، ويبدو أن الرجل أحب الجزائر

والسؤال: لماذا نسيان كامو؟ وهو الروائي الذي وصلت مبيعاته من رواية «الغريب» إلى 9 ملايين نسخة، ووزعت «الطاعون» 5 ملاين نسخة.

مقدم الكتاب «فريدريك جمبسون»، يقول: «الكتاب لا يطعن في كامو الكاتب بقدر ما يطعن في كامو الرجل السياسي الذي جاهد لإخفاء تناقضات لم يعد يسيطر عليها بعد الحرب العالمية الثانية وانتقاله إلى فرنسا»، وفي المقدمة أيضاً يقول «جمبسون»: «فإن استراتيجية كامو السياسية، كانت متقاطعة مع كتاباته في شكل مناورات تكتيكية، كشفت وجهه الحقيقي الاستعماري المبدئي بعد أن لبس ثوب اليساري التقدمي المدافع عن الجبهة الشعبية الفرنسية ومكاسبها العمالية»

وعودة للتساؤل: لماذا «نسيان كامو»؟

أقول، لأن روايته «الغريب»، تعمد فيها أن يغيّب أصحاب الأرض من الجزائريين، تغييب متعمد لشعب أراده أن يبقى رازحاً تحت تأثير استعمار يمكن من وجهة نظره أن يكون عادلاً وإنسانياً، وهذا الشعب الجزائري صاحب الأرض والحق، تركه «كامو» في «الغريب» غريباً، بلا اسم ولا هوية.

«كامو» الذي رفض التنديد بتعذيب كبار جلادي العساكر الفرنسيين للجزائريين، و«كامو» الذي حاول التقرب إلى «جان بول سارتر» منذ حضورهما في باريس لمسرحية «الذباب»، حتى أصبحا مقربين من بعضهما، ثم تنافرا يوم قرأ «كامو» مقدمة كتاب «معذبو الأرض» (من تأليف «فرانتز فانون»، وصدر عام 1961، ويشرح فيه المؤلف الآثار النفسية المدمرة للاستعمار على الفرد) فاتهم «كامو» يومها «سارتر» بأنه يروج للإرهاب ويعادي السامية، فقط لأنه دافع عن فلسطين، وتلك حقيقة

ولماذا «نسيان كامو»؟

لأنه ببساطة كاتب عنصري من طراز مقيت، وليس أدل على ذلك من رده على الفرنسي «جان

Photo Source: rommanmag (2020)

لأنه ببساطة كاتب عنصري من طراز مقيت، وليس أدل على ذلك من رده على الفرنسي «جان بيار غارنييه» الذي سأله في باريس: لماذا لا تشتري بيتاً في الريف، أو على ضفاف البحر ما دمت متعلقاً بالجزائر؟ فرد عليه كامو: لأن العرب يتواجدون هناك.

بيار غارنييه» (رجل أعمال فرنسي ولد في «لو مان» في الأول من أكتوبر 1947، وتخرج في جامعة ستراسبورغ) الذي سأله في باريس: لماذا لا تشتري بيتاً في الريف، أو على ضفاف البحر ما دمت متعلقاً بالجزائر؟ فرد عليه كامو: لأن العرب يتواجدون هناك.

وفي سياق الحديث عن العنصرية، نجد أن الكاتب الجزائري حميد زناز يؤلف كاتباً عنوانه سؤال كبير: «والفيلسوف إذا سئل: لماذا اختار ألبير كامو أمه؟» (صدر عام 1921م عن الدار الجزائرية للنشر والتوزيع) في إشارة تفضيل «كامو» أمه على العدالة خلال مراسم منحه جائزة نوبل في الآداب، والتي قيل إن جريدة «لوموند» الفرنسية نشرت المقولة مجتزأة من سياقها، لكن من الثابت قوله حسب مصادر متعددة: «لو خيرت بين العدالة وأمي، لاخترت أمي

والحقيقة أن تلك المقولة أعادتني إلى دار المسنين في حجّوط من أعمال ولاية تيبازة، حيث ترك «ألبير كامو» أمه «كاثرين سانتي» في دار مسنين، وذكرت لي السيدة «فاكية»، حفيدة تلك الممرضة التي كانت تعتني بأمه، أن ولدها لم يكن يعودها إلا كل حين وحين، وعند وفاتها لم يكن قد زارها منذ فترة طويلة، وقد قرأت له كيف تلقى خبر وفاة أمه، وكيف سافر من الجزائر العاصمة إلى شمال تيبازة للمشاركة في مراسم دفنها بكل برود، حتى أن رجلاً من المسنين في الدار سأله عن عمر أمه، فقال: لا أعرف. وتساءلت عن مصداقيته في اختيار أمه على العدالة، ويبدو لي أن الرجل قد خاصم الحياة، وخاصم أمه، وخاصم العدالة، وقيم الحرية، وليس في ذلك أي تحامل عليه، ولا انتقاصاً من أعماله الأدبية رغم ما يمكن أن يوجّه له فيها من نقد أو حتى تقريع، فالقاعدة الفقهية في الإسلام تقول: العقوق لا تلغي الحقوق

قلت إن «كامو» لم يكن وفياً لأمه، ولكن حتى في مماتها كان بارداً، فتجد أنه يقول: «اليوم ماتت أمي، أولعلها ماتت أمس، لست أدري. وصلتني برقية من المأوى: الأم توفيت. الدفن غداً» (الغريب، الوطن اليوم للنشر، الجزائر، سلسلة كتاب الجيب، 2019، ص3).

وفي «الغريب» غيب الرجل أهل الجزائر، لا أسماء ولا هوية للشخوص، ولا ملامح للوجوه، إنهم بالنسبة إليه عرباً لا أكثر، كلهم عرب، وتلك نظرة استعلائية تجعل الغاصب المستعمِر غير قادر على لفظ هوية الشعب المستعمَر، فإن قلت جزائري، فذلك يعني أن هناك جزائر، وهكذا تجد المحتل الإسرائيلي وشعبه اليوم يتصرف على نفس النحو الذي كان يفكر فيه «كامو»، فالإسرائيلي يقول «العرب»، ولا يمكن له أن يقول «فلسطيني»، لأن ذلك اعتراف باسم فلسطين، وأن الأرض التي يفعل فيها كل ما يفعل، هي «أرض إسرائيل»، وليس «فلسطين»، وترى «كامو» يقول: «شاهدت جماعة من العرب مستندين إلى واجهة مكتب التبغ»، ويقول: «أما ماري فلم تفهم ما يجري، وأرادت أن تستبين منا الأمر، أخبرتها أنهم عرب يريدون سوءً برايمون، فرغبت أن نرحل». ويقول في موضع آخر من الرواية نفسها: «كان العربيان يتقدمان على مهل، وكنا نتقدم بخطوات متساوية صوب العربيين، وبدأت المسافة بيننا تتقلص بانتظام، وإذ صرنا على بعد خطوات من بعضنا، توقف العربيان».

يرتكب راوي الرواية في «الغريب» ببرود، جريمة قتل لأحد هؤلاء العرب، يطلق عليه رصاصة أصابته في مقتل، ويرتمي الرجل أرضاً، وكان ذلك بحضور صديقي الراوي ماري، ورايمون، إلا أن هذا القاتل الفرنسي يسارع لإطلاق أربعة رصاصات أخرى فرغها في جسد القتيل، وهذا ما لم يستطع فهمه المحامي أو المدعي العام الفرنسي أو قاضي التحقيق، وعندما عبر إلى السجن يذكر في الرواية: «وفي أول يوم توقيفي تم حبسي داخل غرفة كانت تحتضن أصلاً العديد من المعتقلين، وكان أغلبهم من العرب، وضحكوا إذ رأوني، ثم سألوني عما اقترفته، أخبرتهم أني قتلت عربياً، فظلوا صامتين».

هكذا تجد المحتل الإسرائيلي وشعبه يتصرف على نفس النحو الذي كان يفكر فيه «كامو»، فالإسرائيلي يقول «العرب»، ولا يمكن له أن يقول «فلسطيني»، لأن ذلك اعتراف باسم فلسطين

(5)

الخلاصة:

قدم «جاك بيرك» للمكتبة العربية منجزات بحثية ودراسات اجتماعية لا يمكن التقليل من قيمتها العلمية، كما أن إسهامه في ترجمة القرآن الكريم، وفي عشقه وتعلقه باللغة العربية وأهلها، جعله يصبح أستاذاً في اللغة العربية والإسلام المعاصر في «كوليج دي فرانس»، وبالنظر إلى أنه ولد في العصر الكولونيالي الاستعماري في الجزائر، فإن ما قدمه من نتاج علمي وبحثي، ومواقفه تجاه انتقاد السلطة الفرنسية آنذاك، ومواقفه الرافضة للاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية عام 1976م، مسائل تجعل من اللائق الحكم على الرجل بنوع من أنواع التفهم والبعد عن الغلو والتشدد في إطلاق الأحكام، وأحياناً دون دراية أو قراءة لأعمال من يوجه له النقد

لم يكن «جاك بيرك» يحمل أي نزعة استعلائية أو استعمارية، وهو الذي حفظ أجزاء من كتاب الله الكريم، وتحدث عن الإسلام والعرب باحترام وتقدير كبيرين، وهو الذي أوصى أن يوضع إلى جانب جثمانه نسخة من ترجمته للقرآن الكريم، آملاً في إنصاف الله عز وجل له من ظلم البشر، وهو الذي أوصى بنقل كافة محتويات مكتبته إلى مسقط رأسه في الجزائر، وهي الخطوة التي بادلتها الحكومة الجزائرية خيراً بتسمية ملحقة مكتبة مدينة «فرِندَة» باسمه.

وأما الروائي والفيلسوف «ألبير كامو»، فيبدو لي وقد تفكرت في ذلك وأنا أقف حيث كان يتفكر من على تلك الهضبة الصخرية المطلة في مدينة تيبازه على جبل شِنوَة والبحر الأبيض المتوسط، أنه أحب «الجزائر الفرنسية»، ولم يحب الجزائر العربية، وكانت البلاد في نظره جنة إلى أن قامت الثورة عام 1957م، فرحل إلى فرنسا، ومات في حادث سير عبثي عام 1960م قبل تحرير الجزائر ونيل الشعب الجزائري حريته بسنتين فقط

ما من شك أن «كامو» أديباً ومفكراً وفيلسوفاً مبدعاً، وإذا قررنا أن نفصل الأعمال الأدبية عن المواقف السياسية، فلا غبار على «كامو»، وأما إذا كانت الأقوال والأفعال والمواقف مطلوبة لتحقيق مصداقية ما يكتب الكاتب، فإن «كامو» مُدان، فقد تخلى عن قيمة الكاتب في الدعوة إلى العدالة والإنصاف، والانحياز إلى حقوق الإنسان، وليس إلى مصالح الاستعمار وشعبه

على أن التفكير بعقلية عام 2024م، لا بد أن تختلف عن أسلوب تعاطي فرنسي ولد بعد مئة عام على «فرنسة الجزائر»، ويبدو أن «كامو» لم يستطع استيعاب أن الجزائر يمكن أن تنفصل يوماً عن فرنسا، ولذلك كان يتمنى أن يكون المستبد عادلاً، والمستعمِر رحيماً، والمُستَعمَر متفهماً ومتقبّلاً، وربما مستكيناً

وسيظل «بيرك» و«كامو» موضع نقاش ودراسة ونقد وجدال لعقود من الزمن، وما زلنا وبعد 63 عاماً على تحرير الجزائر، نشهد قراءات جديدة، لهذا أو ذاك، من قبل أساتذة وباحثين في الشرق والغرب، منهم من يثني، ومنهم من يقصي، وتلك حالة طبيعية عندما يختلط الأدب بالسياسة، وعندما تستحضر الجغرافيا التاريخ

Photo Source: AlJazeera (2022)

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

Gulf Research Center
Jeddah
(Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center
Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center
Foundation Geneva

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre
Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center
Foundation Brussels

Avenue de
Cortenbergh 89
4th floor, 1000
Brussels
Belgium

@Gulf_Research Gulfresearchcenter gulfresearchcenter gulfresearchcenter

www.grc.net

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع